رحمة النبي ﷺ
في القرآن الكريم

إعداد:
أ. حمدان بن لافي بن جابر العنزي
المحاضر في قسم الدراسات الإسلامية
جامعة الحدود الشمالية

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أما بعد:

فإن الله ﷻ جمع لنبيه ﷺ أنواع الفضائل، وجميل الأخلاق والشمائل، ووصفه بصفات الكمال، وأبعد عنه صفات النقص والمعايب، ومن أخص صفاته التي وصفه بها وله منها الحظ الأوفى، صفة الرحمة؛ فإن الله ﷻ أرسله لذلك، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء].

ولإبراز هذه الرحمة التي وصف الله بها ﷻ نبيه في آيات من كتابه؛ رأيت الكتابة عنها في هذ البحث المختصر الذي جعلت عنوانه: «رحمة النبي ﷺ في القرآن الكريم»؛ كأحد البحوث المقدَّمة إلى المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام؛ والذي سيعقد في رحاب جامعة الملك سعود في مدينة الرياض، خلال الفترة ٢٨-٣٠/٤/١٤٣٧هـ.

فما كان فيه من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان، والله ورسوله بريئان.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

١. التعرف على الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة في القرآن الكريم.

٢. تأصيل خلق الرحمة من خلال الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، سواء أكان من خلال الألفاظ التي وردت فيها، أم من خلال المعاني التي تضمنتها.

٣. إخراج دراسة قرآنية تجلي صفة الرحمة عند نبي الرحمة ﷺ؛ ليأخذ منها القارئ الكريم الدروس والعبر.

مشكلة البحث:

تتمثل في أنه وردت عدة آيات وصف بها الله نبيه ﷺ بالرحمة، بألفاظ متنوعة، وبأساليب مختلفة، مما يستلزم معه جمع تلك الآيات، ومحاولة التعرف على تلك الألفاظ، وتلك الأساليب التي وردت في تلك الآيات، وتأصيل وبيان دلالتها على الرحمة.

حدود البحث:

سأقتصر في هذا البحث على دراسة الآيات، التي وصف الله فيها نبيه ﷺ بالرحمة في القرآن الكريم، وهي أربع آيات[1]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

(١) اقتصرتُ على موضع الشاهد من الآية؛ وسيأتي ذكر الآية بتمامها في موضعها من البحث.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

أهمية البحث وأسباب اختياره:

دفعني لاختيار الموضوع الأسباب التالية:

١. شرفه؛ لكونه متعلقًا بالقرآن الكريم، وبنبي الرحمة ﷺ.

٢. اشتمال عدد من آيات القرآن الكريم على وصف النبي ﷺ بالرحمة؛ مما يستدعي جمع تلك الآيات، وإفرادها في بحث مستقل.

٣. أن هذا البحث من أقل الواجب تجاه نبي الرحمة ﷺ؛ هذا من حيث العموم، فكيف إذا سمعنا من ينتقص منه ﷺ، ويصفه ﷺ ودينه بالغلظة وعدم الرحمة.

منهج البحث:

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الاستنباطي.

خطة البحث:

وقد قسمتُ هذا البحث إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس علمية، على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على: أهداف البحث، ومشكلة البحث، وحدود البحث، وأهمية البحث وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطة البحث، وإجراءات البحث.

التمهيد: ويشتمل على ما يلي:

أولًا: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح.

ثانيًا: إنعام الله ﷻ وتفضله على نبيه ﷺ بالرحمة.

المبحث الأول: الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، والمعاني التي تضمنتها، وتحته ثلاث مطالب:

المطلب الأول: لفظ اللين الموصوف به ﷺ.

المطلب الثاني: الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ.

المطلب الثالث: الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه ﷺ.

المبحث الثاني: أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في القرآن الكريم، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: رحمته ﷺ للعالمين.

المطلب الثاني: رحمته ﷺ للمؤمنين خاصة.

الخاتمة.

فهرس المصادر والمراجع.

إجراءات البحث.

يمكن تلخيص إجراءات البحث في التالي:

١. جمع الآيات التي تتعلق بموضوع رحمة النبي ﷺ، وتوزيعها حسب خطة البحث.

٢. دراسة موضوع رحمة النبي ﷺ في تلك الآيات، دراسة تحليلية مقارنة، وذلك من خلال جمع كلام المفسرين وغيرهم على تلك الآيات، ومحاولة تأصيل خلق الرحمة من خلال ذلك.

٣. عزو الآيات وترقيمها؛ بذكر اسم السورة مع رقم الآية، ووضعها بين قوسين، وذلك بعد نهاية الآية المنقولة، وسأعتمد في نسخ نص الآية على مصحف المدينة.

٤. تخريج الأحاديث الواردة في البحث، ونقل أقوال العلماء في الحكم عليها تصحيحًا أو تضعيفًا؛ إذا كان الحديث في غير الصحيحين.

٥. إيضاح الكلمات الغريبة، وذلك بالرجوع إلى المصادر المعتمدة.

٦. ختم البحث بخاتمة فيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

٧. تزويد البحث بالفهارس التالية: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

التمهيد

ويشتمل على ما يلي:

أولًا: تعريف الرحمة في اللغة والاصطلاح.

أ. تعريف الرحمة في اللغة:

تدور مادة: (ر ح م) حول معنى الرقَّة، والعطف.

قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رقَّ له، وتعطَّف عليه، والرُّحْم والمرحمة والرَّحمة بمعنًى»[1].

وقال ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة: الرقة والتعطف...، والرحمة في بني آدم: رقة القلب وعطفه»[2].

ب. تعريف الرحمة في الاصطلاح:

ذكر أهل العلم في تعريف الرحمة في الاصطلاح عدة تعريفات، مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قول الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، نحو رحم الله فلانًا»[3].

(١) مقاييس اللغة، مادة رحم (٣/٣٩٨).
(٢) لسان العرب (١٢/٢٣١).
(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة (رحم) (١٩١).

وقال الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأ للانعطاف النفساني، الذي هو مبدأ الإحسان»[1].

وقال الشيخ عبدالرحمن الدوسري رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرحمة هي لين القلب ودماثته، وتحننه على المرحوم»[2].

وعرفها بعض الباحثين بقوله: «رقة يجدها المخلوق في قلبه، تحمله على العطف والإحسان إلى سواه، ومواساته، وتخفيف آلامه»[3].

هذا ما يتعلق بتعريف الرحمة في حق المخلوق.

وأما الرحمة بالنسبة للخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فهي صفة من صفاته الذاتية الثابتة له جَلَّ جَلَالُهُ، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وهي أيضًا صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال جَلَّ جَلَالُهُ، ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، وهي رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣][4].

ثانيًا: إنعام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتفضله على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحمة.

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى منته على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن جعله رحيمًا رؤوفًا بالمؤمنين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩][5]؛ فأسند الرحمة إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأنه المتفضل بها؛ ولأن إسنادها إليه يفيد عظمتها، وأنها رحمة عظيمة[6].

قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونبَّه بقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٩]

(١) الكليات (ص٤٧١).
(٢) صفوة الآثار والمفاهيم (٣٨٧/٤).
(٣) الرحمة في القرآن الكريم لموسى عسيري (ص٢١، ٢٢).
(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن (٢٤/١).
(٥) انظر: بحر العلوم (٢٨٥/١).
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم (٣٦٢/٢).

على نعمته على النبي ﷺ أولًا، وعلى أمّته ثانيًا، كقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]. الآية، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]»[١].

فبسبب الرحمة العظيمة التي أنزلها على قلبه وخصه بها، كان على جانب عظيم من اللين واللطف بصحابته، بحيث لم يروا منه توبيخًا ولا تعنيفًا، بل تجد حقيقة الرحمة الإلهية المتمثلة في أخلاق رسوله ﷺ، بحيث عمت جميع المؤمنين، ولا شك أن اللّه منحه رحمة عظيمة بجانب ما حصل منهم يوم أُحُد[٢].

وقد جاء في آيات أخر ما يؤيد هذا الإنعام والتفضل من اللّه سبحانه وتعالى على نبيه بهذه الرحمة؛ وذلك بما أوحاه اللّه إليه من الوحي؛ فكان ذلك رحمة من اللّه له ولأمته، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٤٦].

فبعثة الرسول بما أوحاه اللّه إليه من الوحي رحمة من اللّه له ولهم[٣]؛ فثبت بالدليل القطعي صحة رسالته، ورحمة اللّه به للعباد[٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦].

فالآية تذكير لنعمه سبحانه وتعالى على رسوله، وأنه سبحانه وتعالى رحمه رحمة لم يتعلق بها رجاؤه[٥]، فالاستثناء في ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن النبي ﷺ لم يكن يرجو أن يبعثه اللّه بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد

(١) تفسير الراغب (٢/٥٩٠).
(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٣٨٧/٤).
(٣) انظر: جامع البيان (١٩/٥٨٦).
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٦١٧).
(٥) انظر: البحر المحيط (٧/١٣٢).

رحمة من الله ﷻ به واصطفاء له[1]، فأرسله بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[2].

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٠/ ١٩٤).
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٦٢٥).

المبحث الأول
الألفاظ ذات الصلة بالرحمة، الواردة في الآيات التي وصف الله بها نبيه ﷺ بالرحمة، والمعاني التي تضمنتها

ورد في الآيات التي وصف الله فيها نبيه ﷺ بالرحمة ألفاظ مقاربة للرحمة في معناها: كلفظي اللين والرأفة، وأخرى مُقَابِلة لها: كلفظي الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ، وسأعرض لمعاني تلك الألفاظ ودلالتها على الرحمة من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول
لفظ اللين الموصوف به ﷺ

جعل الله لين نبيه ﷺ مصاحبًا لرحمة أودعها فيه[1]، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩] واللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني[2].

وعبر بالفعل الماضي في قوله: ﴿لِنتَ﴾؛ للدلالة على أن ذلك وصف تقرر

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٤٥/٤)
(٢) المفردات، مادة (لين) (ص٤٥٧).

وعرف من خُلُقِه، وأن فطرته على ذلك برحمة من الله، إذ خلقه كذلك، والله أعلم حيث يجعل رسالته[١].

أثنى الله ﷻ في هذه الآية على نبيه باللين للمؤمنين[٢]؛ إذ لم يؤاخذهم، ولم يفرط في القول معهم، ولم يسرع إليهم فيما كان منهم يوم أُحُدٍ[٣].

قال الطبري رحمه الله: «﴿لِنتَ لَهُمْ﴾ أي لأتباعك وأصحابك، فسُهلت لهم خلائقك، وحسنت لهم أخلاقك، حتى احتملت أذى من نالك منهم أذاه، وعفوت عن ذي الجرم منهم جرمَه، وأغضيت عن كثير ممن لو جفوت به وأغلظت عليه لتركك، ففارقك ولم يتَّبعك ولا ما بُعثت به من الرحمة، ولكن الله رحمهم ورحمك معهم، فبرحمة من الله لنت لهم»[٤].

ومنشأ هذه الرحمة أن الله العليم الحكيم يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، هو الذي أعلمه بسلامة صدورهم، وأن ما حصل منهم ليس عن خيانة لدين الله ورسوله، وإنما حصل بسبب ملابسات شيطانية، منها الغرور بالانتصار بادىء الأمر؛ مما حدا ببعضهم إلى الطمع في الغنيمة وهم أهل الثغر، ثم صيحة الشيطان بقتل رسول الله ﷺ، وما حصل عليهم من الإرجاف من جهة المنافقين[٥].

ومعاملته لهم ﷺ بذلك؛ يدل على أنه ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لينًا ليتعرض لرحمة الله ﷻ؛ فهذا رسول الله ﷺ سيد قومه بل سيد الأمة جميعًا، فألانه الله لهم[٦].

قال ابن سعدي رحمه الله: «فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب

(١) انظر: التحرير والتنوير (٤/١٤٥)
(٢) انظر: أضواء البيان (٢/١٣٦).
(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب (٦/١٧).
(٤) جامع البيان (٦/١٨٦).
(٥) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٤/٣٨٧).
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم (٢/٣٦٧)، والعذب النمير (٢/ ١٧٦).

الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله»[1].

المطلب الثاني
الفظاظة والغلظة المنفية عنه ﷺ

من رحمة الله في حق نبيه ﷺ أنه أعلمه مفاسد الفظاظة والغلظة، فقال ﷻ له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩][2].

جاء القرآن الكريم بنفي الفظاظة والغلظة عنه ﷺ، كما في هذه الآية الكريمة، وهو أيضًا ما جاء في صفته ﷺ في الكتب السابقة للقرآن؛ فعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «أنه رأى صفة رسول الله في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفَظٍّ ولا غليظ، ولا سَخّاب[3] في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[4].

قال ابن حجر رحمه الله قوله: «ليس بفظ ولا غليظ»: هو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] »[5].

واستأذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ والنساء حوله: فأذن

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص١٥٤).
(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم (٤/٣٨٨، ٣٨٧).
(٣) السّخَب والصّخَب: بمعنى الصياح. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة سخب (٢/٨٨٤).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب البيوع، باب كراهية السخب في الأسواق (٢/٧٤٧)، ح (٢٠١٨).
(٥) فتح الباري (٨/٥٨٦).

له رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: «أضحك الله سنك يا رسول الله[1]، قال: عجبتُ من هؤلاء اللاتي كن عندي، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب، قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن، ثم قال: أي عَدُوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله ؟ قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكًا فجًّا إلا سلك فجًّا غير فجك»[2].

وفي سر الجمع بين الفظاظة والغلظة في الآية الكريمة، وفي الحديث الشريف رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أن الفظاظة والغلظة بمعنىً واحد، وجمع بينهما للتأكيد.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فأما الغليظ القلب فقيل: هو القاسي القلب، فيكون ذكر الفظاظة والغلظة وإن كانا بمعنىً واحد توكيدًا»[3].

وهذا ما ذكره بعض أهل العلم أيضًا في سر الجمع بين الفظاظة والغلظة، فيما وصف به النساء عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال النووي رحمه الله: «قوله: «قلن: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله»، الفظ والغليظ بمعنى، وهو عبارة عن شدة الخلق وخشونة الجانب»[4].

الرأي الثاني: أن الفظاظة والغلظة ليسا بمعنى واحد، والجمع بينهما ليس للتأكيد.

وهذا يستدعي عرض أقوال أهل العلم في المراد بكل منهما، فأقول وبالله التوفيق:

(١) قال ابن حجر رحمه الله: ««قوله: أضحك الله سنك»: لم يرد به الدعاء بكثرة الضحك؛ بل لازِمُه، وهو السرور، أو نفي ضد لازمه وهو الحُزن» فتح الباري (٤٧/٧).
(٢) أخرجه البخاري في صَحيحه كتاب فضائل أصحاب النبي، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العَدَوِيِّ رضي الله عنه (١٣٤٧/٣)، ح (٣٤٨٠) ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رضي الله عنه، (١٨٦٣/٤)، ح (٢٣٩٦).
(٣) زاد المسير (٤٨٦/١). وانظر: النكت والعيون (٤٣٣/١)، والبحر المحيط (١٠٤/٣).
(٤) شرح النووي على مسلم (١٦٥/١٥).

أمَّا قوله: ﴿فَظًّا﴾.

فيقول ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفاء والظاء كلمةٌ تدلُّ على كراهة وتكرُّه. من ذلك الفَظ: ماءُ الكَرِش. وافتُظَّ الكرِش، إذا اعتُصر، قال بعضُ أهل اللُّغة: إنَّ الفَظاظةَ من هذا. يقال رجلٌ فظٌّ: كريه الخُلُق. وهو من فَظِّ الكَرِش، لأنه لا يُتناول إلاَّ ضرورةً على كراهة»[1].

والفظاظة في الآية راجع إلى عدم اللين في الكلام، وإلى سوء الأخلاق؛ وهو ما ذكره المفسرون بقولهم: الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلا[2].

وأمَّا قوله: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾.

فيقول ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ: «الغُلْظُ والغِلْظُ: ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ونحو ذلك، ورجل غليظ: فيه غلظة وفظاظة وقساوة وشدة. وفي التنزيل: ﴿فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾»[3].

فالمراد بقوله: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: قاسي القلب. وعلى هذا القول جمهور المفسرين[4].

إن التفريق بين الفظاظة والغلظة في المعنى أولى من القول أنهما بمعنى واحد والجمع بينهما للتأكيد، وهو الذي تعضده قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي: قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد[5].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والفظ الغليظ، والمراد به هاهنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك: ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ أي: لو كنت سيِّئَ الكلام؛ قاسي القلب عليهم، لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك، والآن جانبك لهم تأليفًا لقلوبهم»[6].

(١) مقاييس اللغة، مادة فظ (٤/٤٤١).
(٢) انظر: المحرر الوجيز (١/٥٣٣)، والبحر المحيط (٣/١٠٤)، وإرشاد العقل السليم (٢/١٠٥).
(٣) لسان العرب، مادة غلظ (٧/٤٤٩).
(٤) انظر: جامع البيان (٥/١٥١)، وتفسير القرآن للسمعاني (١/٣٧٢)، والكشاف (١/٤٥٩).
(٥) انظر: قواعد الترجيح عند المفسرين (٢ /٤٧٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٢/١٤٨).

وقال السمين الحلبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفظاظة: الجفوة في العِشْرَة قولًا وفعلًا، والغِلْظُ: قساوة القلب، وهذا أحسن مِنْ قول من جعلهما بمعنىً، وجمع بينهما تأكيدًا»[1].

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩] لا يعارض قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣، والتحريم:٩].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض شرحه لحديث عبدالله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «إنه رأى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: أنه ليس بفَظٍّ ولا غليظ»: «قوله: «ليس بفَظٍّ ولا غليظ»: هو موافق لقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ولا يعارض قوله تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]؛ لأن النفي محمول على طبعه الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة للمؤمنين والأمر بالنسبة للكفار والمنافقين، كما هو مصرح به في نفس الآية»[2].

وكذلك في قول النساء لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت أفظ وأغلظ من رسول الله» فإنه يفهم منه الاشتراك بين النبي ﷺ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أصل الفعل، وهو الفظاظة والغلظة، وهذا أيضًا يعارض قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ «قوله: «أنت أفظ وأغلظ» صيغة أفعل التفضيل من الفظاظة والغلظة؛ وهو يقتضي الشركة في أصل الفعل، ويعارضه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ إنه يقتضي أنه لم يكن فظًّا ولا غليظًا، والجواب: أن الذي في الآية يقتضي نفي وجود ذلك له

(١) الدر المصون (٣/٤٦٣).
(٢) فتح الباري (٨/٥٨٦).

صفة لازمة فلا يستلزم ما في الحديث ذلك، بل مجرد وجود الصفة له في بعض الأحوال وهو عند إنكار المنكر مثلًا -والله أعلم-»[1].

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لحديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وفي هذا الحديث فضل لين الجانب والحلم والرفق ما لم يفوت مقصودًا شرعيًّا، قال الله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، وقال تعالى: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة:١٢٨]»[2].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]: "«وقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾ [الفرقان]، وكقول بعض الصحابيات لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت أفَظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ»"[3].

وحمل ابن عطية غلظة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على الشدة في دين الله، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الجواري لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنت أفَظُّ وأغلظ من رسول الله ﷺ»؛ الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما كانت مستعملة منه آلة لعضد الحق، والشدة في الدين»[4] -والله تعالى أعلم-.

فرحمة النبي ﷺ لا يقاربه فيها أحد من الخلق، وهذه الرحمة ظهرت آثارها في معاملته للخلق، ولا تنافي قوة القلب وصبره، فقد كان أصبر الخلق وأشجعهم وأقواهم قلبًا مع كمال رحمته، فقوة القلب من آثارها الصبر والحلم والشجاعة القولية والفعلية، والقيام التام بأمر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورحمة القلب من آثارها: الشفقة والحنو والنصيحة،

(١) فتح الباري (٥٨٦/٨).
(٢) شرح النووي على مسلم (١٦٥/١٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٦٢/٣).
(٤) المحرر الوجيز (٣٩٦/٣).

وبذل الإحسان المتنوع، فأي أخلاق تقارب هذه الأخلاق السامية الجلية. فقوة القلب وشجاعته تنفي الضعف والخور، ورحمته تنفي القسوة والغلظة والشراسة(١).

المطلب الثالث
الرأفة والرحمة المجتمعة في وصفه ﷺ

كانت سورة التوبة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب، وأمرًا للمؤمنين بالجهاد، وإنحاء على المقصرين في شأنه، فجاءت خاتمة هذه السورة بتذكير المؤمنين بالمنة ببعثة محمد ﷺ، ومن مظاهر الرحمة التي جعلها الله ﷻ مقارنة لبعثة رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]؛ أن جاء بما يزيل الحرج من قلوب الذين نزلت فيهم آيات الشدة، وعوملوا بالغلظة، تعقيبًا للشدة بالرفق، وللغلظة بالرحمة، فقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة](٢).

وصف الله ﷻ رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٤٣] وهذا نهاية الكرامة(٣).

وجمهور أهل العلم على أن الرَّأفة أخص من الرحمة، ومما ذكروه على هذا المعنى قولهم:

(١) انظر: فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن (ص١١٤).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١١/٧٠).
(٣) انظر: تفسير القرآن للسمعاني (٢/٣٦٣)، والجامع لأحكام القرآن (١٠/٤٤٢).

الرَّأفة: أشد الرحمة[١]، أو الرَّأفة: أعلى معاني الرحمة[٢]، أو الرَّأفة: ألطف الرحمة وأرقها[٣].

قال الزجاج رَحِمَهُ اللَّهُ: «الرَّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»[٤].

فالرأفة رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر، أما الرحمة فهي أشمل وأعم؛ لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها[٥].

وتقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني؛ فهو ﷺ يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم[٦].

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصًّا وهو قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٧]؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين، فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم[٨].

قال محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتخصيص رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين - لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته ﷺ، ولكن منهم من قبلها، ومنهم من ردَّها، وقد بينَّا

(١) انظر: مجاز القرآن (٥٩/١)، وتفسير القرآن للسمعاني (٣٧٩/٥)، ومعالم التنزيل (١٢٤/١).
(٢) انظر: جامع البيان (١٨/٢)، والمحرر الوجيز (٢٢١/١).
(٣) انظر: مدارج السالكين (٥١٨/١).
(٤) تفسير أسماء الله الحسنى (ص٦٢).
(٥) انظر: التحرير والتنوير (٤٢١/٢٧).
(٦) انظر: روح المعاني (٥٢/١١)
(٧) انظر: البحر المحيط (١٢٠/٥).
(٨) انظر: التحرير والتنوير (٧٣/١١).

في تفسير ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة:٧٣] أنه إنما أُمر بذلك ﷺ، لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والأدب في المقابلة والمعاشرة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]»[١].

وقد تنوعت عبارات المفسرين في معنى رأفته ورحمته ﷺ بالمؤمنين.

فقيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين، وقيل: رؤوف بمن رآه، رحيم بمن لم يره، وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بغيرهم[٢].

والظاهر تعلق الصفتين بجميع المؤمنين دون تخصيص[٣].

قال الآلوسي رحمه الله: «وزعم بعضهم أن المراد: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين، وقيل: رءوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، وقيل: رؤوف بمن يراه، رحيم بمن لم يره، ولا مستند لشيء من ذلك»[٤].

-والله تعالى أعلم-.

(١) تفسير المنار (١١/٧٢).
(٢) انظر: الكشف والبيان (٥/١١٤)، والبحر المحيط (٥/١٢٢).
(٣) انظر: البحر المحيط (٥/١٢٢).
(٤) روح المعاني (١١/٥٣، ٥٤).

المبحث الثاني
أنواع الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في القرآن الكريم

تنوعت الرحمة التي وصف الله بها نبيه ﷺ في الآيات التي وردت فيها، وسيكون الحديث عنها من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول
رحمته ﷺ للعالمين

إرسال النبي ﷺ من أعظم النعمة على الخلق، وفيه أعظم حكمة للخالق، ورحمة منه لعباده، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء][1].

اشتملت هذه الآية بوَجَازة ألفاظها على مدح الرسول ﷺ، ومدح مُرسله ﷻ، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله ﷻ للناس كافة، وبأنها رحمة الله ﷻ بخلقه[2].

والرحمة على عمومها[3] في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين:

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/٩٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧/١٦٥).
(٣) وذهب عبدالرحمن بن زيد إلى أن المراد بالعالمين: المؤمنون خاصة، فهو رحمة للمؤمن. انظر معالم التنزيل (٥/٣٥٩). قال الشوكاني رحمه الله: «﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] أي: =

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته[1]؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين، حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «وأصح القولين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، أنه على عمومه، وفيه على هذا التقدير وجهان:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة، وأما أعداؤه المحاربون له، فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء، فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته، وهم أقل شرًّا بذلك العهد من المحاربين له، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها، وأما الأمم النائية عنه، فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته»[3].

الوجه الثاني: أنه رحمة للناس كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّها وجحدها خسر في الدنيا والآخرة[4].

= وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والأحكام إلا رحمة لجميع الناس...، وقيل المراد بالعالمين: المؤمنون خاصة، والأول أولى؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال:٣٣]» فتح القدير (٣/٥٨٧).

(١) وهو الذي رجحه الطبري رحمه الله. انظر: جامع البيان (١٨/٥٥٢).

(٢) انظر: بحر العلوم (٢/٤٤٥).

(٣) جلاء الأفهام (ص٢٨٩، ٢٨٨).

(٤) وهذا الوجه رجَّحه ابن كثير، والشنقيطي، وابن سعدي -رحمهم الله-.
انظر: تفسير القرآن العظيم (٥/٣٨٥)، وأضواء البيان (٤/٢٨٨)، وتيسير الكريم الرحمن (ص٥٣٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنون قبلوا هذه الرحمة فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض»(١).

وقال ابن جُزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل رحمة للعالمين عموم، والكفار لم يرحموا به؟ فالجواب: أنهم كانوا معرضين للرحمة به لو آمنوا، فهم الذين تركوا الرحمة بعد تعريضها لهم»(٢).

وقال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١] «في هذه الآية سؤال معروف؛ وهو أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال في آية براءة هذه: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ فقيد كونه رحمة للذين آمنوا، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] فلم يقيد كونه رحمة بالإيمان، بل قال لجميع العالمين.

والجواب عنه: أن الله جَلَّ جَلَالُهُ أرسله ﷺ رحمة لجميع الخلائق، إلا أن بعضهم قبل من الله التفضل بتلك الرحمة فحازها، فخص في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ وبعضهم لم يقبلها ولم يَحُزْها، ولا ينافي ذلك أن الله أعطاه تلك الرحمة إلا أنه لم يقبلها ولم يَحُزْها.

وضرب العلماء لهذا مثلًا، قالوا: لو أن سلطان البلد مثلًا -ولله المثل الأعلى- أرسل لجميع سكان البلد إنعامًا كثيرًا كأن أجرى لهم المياه تأتيهم، وأجرى عليهم الأرزاق والنعم، وبعضهم امتنع أن يأخذ، وبعضهم أخذ، فلا ينافي أنه أنعم على الجميع. فالله أرسله رحمة للعالمين، بعض الناس قبل من الله فضله، وبعضهم لم يقبل فضله، ولا ينافي ذلك أنه تفضل عليهم ببعثه ﷺ»(٣).

(١) جلاء الأفهام (ص٢٨٩).
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٣٤/٣).
(٣) العذب النمير (٦٠١/٥، ٦٠٠). وانظر: الكشاف (١٣٩/٣)، وتفسير القرآن العظيم (٣٨٥/٥)، وأضواء البيان (٢٨٨/٤).

فالرحمة صفة متمكنة من إرساله ﷺ، كما أخبر الله عنه في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾؛ وكما أخبر ﷺ عن نفسه بقوله: «إنما أنا رحمة مهداة»[1].

وظهرت هذه الرحمة في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، ولهذا خص الله محمدًا ﷺ في سورة الأنبياء بوصف الرحمة ولم يصف به غيره من الأنبياء، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم[2].-والله تعالى أعلم-.

المطلب الثاني
رحمته ﷺ للمؤمنين خاصة

كان النبي ﷺ يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين، مع كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور[3]، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١﴾ [التوبة].

وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه ﷺ عن إجرامهم وإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم[4]؛ فإنه لو أمره الله ﷻ أن يعاملهم بما يُخْفُون من الكفر، لكان ذلك أمرًا بقطع رقابهم، وبقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس الأمر؛ لأنه إمهال لهم،

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك [(١/٩١)، ح (١٠٠)] من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال: «هذا حديث صحيح على شرطهما»، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٤٦٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧/١٦٥).
(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي (١٦/٩٤).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٣).

يرجى أن يتوب بسببه من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من آيات الله وتأييده لرسوله وللمؤمنين[١].

وخص المؤمنين في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر، وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم[٢].

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ من اتبعه واهتدى بهداه، وصدَّق بما جاء به من عند ربه؛ لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتِّباعه جنّاته[٣].

ولذا قال أبو الليث السمرقندي رَحِمَهُ اللَّهُ في قواه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ في السر والعلانية»[٤].

ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ يدل على أن إيذاء الرسول ﷺ بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه، وهو العذاب الشديد الإيلام[٥].

وقيل المراد بالذين آمنوا هنا: المتظاهرون بالإيمان المبطنون للكفر، وهم المنافقون[٦].

وكونه رحمة لهم؛ لأنه قَبِل منهم الإيمان الظاهر، لا تصديقًا لهم، بل رفقًا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين[٧].

(١) البحر المحيط (٥/ ٦٤). وانظر: العذب النمير (٥/٦٠١).
(٢) انظر: البحر المحيط (٥/٦٤).
(٣) انظر: جامع البيان (١٨/٥٥٢). وهو الذي رجَّحه ابن عاشور، ومحمد رشيد رضا وانتصر له. انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٤)، وتفسير المنار (١٠/٤٤٨)
(٤) بحر العلوم (٢/٦٩)
(٥) انظر: تفسير المنار (١٠/٤٤٩).
(٦) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٢٤٤).
(٧) وهو الذي اختاره: الزمخشري، وأبو السعود، والشوكاني، والآلوسي. انظر: الكشاف (٢/٢٧١)،

ويؤيد هذا أن الله قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف[١].

وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي ﷺ إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم[٢].

وأما قولهم: أن الله قال: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيرًا ما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي[٣].

وأما تفسيرهم كونه رحمة بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهرًا؛ فهو خطأ أيضًا؛ لأن ذلك يعتبر استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمة لهم، وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي ﷺ إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال، حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟[٤] -والله تعالى أعلم-.

وإرشاد العقل السليم (٤/ ٧٧)، وفتح القدير (٤٢٩/٢)، وروح المعاني (١٢٧/١٠).

(١) انظر: تفسير المنار (٤٤٨/١٠).

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن (ص٣٤١)، وتفسير المنار (٤٤٨/١٠)، وتفسير المراغي (١٤٨/١٠)، والمنافقون في القرآن الكريم (ص٤١٩).

(٣) انظر: تفسير المنار (٤٤٨/١٠).

(٤) انظر: المنافقون في القرآن الكريم (ص٤١٩).

الخاتمة

أحمد الله ﷻ الذي مَنَّ عليَّ بإتمام هذا البحث، وفيما يأتي أوجز ما توصلت إليه من نتائج:

١. الرحمة في اللغة: هي الرقَّة، والعطف.

٢. الرحمة في الاصطلاح: هي لين القلب ودماثته، وتحننه على المرحوم.

٣. الرحمة بالنسبة لله ﷻ صفة من صفاته الذاتية الثابتة له، وهي أيضًا صفة فعلية يوصلها من شاء من خلقه، وهي رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين.

٤. امتن الله ﷻ على نبيه ﷺ بالرحمة، ورَحَمَ أمته به كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ وفي إسنادها إليه يفيد عظمتها، وأنها رحمة عظيمة.

٥. اللين ضد الخشونة، ويستعمل ذلك في الأجسام، ثم يستعار للخُلق وغيره من المعاني.

٦. ينبغي لمن له سيادة في قومه أن يكون لينًا ليتعرض لرحمة الله

ﷻ؛ فهذا رسول الله ﷺ سيد قومه، بل سيد الأمة جميعًا فألانه الله لهم.

٧. من رحمة الله في حق نبيه ﷺ أنه أعلمه مفاسد الفظاظة والغلظة، فقال ﷻ له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

٨. جاء القرآن الكريم بنفي الفظاظة والغلظة عنه ﷺ، والفظاظة راجعة إلى عدم اللين في الكلام، وإلى سوء الأخلاق، والغلظة قساوة القلب.

٩. وصف الله ﷻ رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا نهاية الكرامة.

١٠. الرَّأفة: أعلى معاني الرحمة.

١١. تقديم الرأفة على الرحمة في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني.

١٢. الظاهر تعلق الصفتين في قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] بجميع المؤمنين دون تخصيص.

١٣. الرحمة على عمومها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء] وهذا العموم يحتمل وجهين: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق. وكان رحمة للمؤمنين، حيث هداهم طريق الجنة، ورحمة للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير

العذاب، والوجه الثاني: أنه رحمة للناس كلهم، فمن قَبِل هذه الرحمة وشكَر هذه النعمةَ، سَعد في الدنيا والآخرة، ومن رَدّهَا وجحدها خسر في الدنيا والآخرة

١٤. الرحمة صفة متمكنة من إرساله ﷺ، وظهرت هذه الرحمة في مظهرين: الأول: تخلق نفسه الزكية بخلق الرحمة، والثاني: إحاطة الرحمة بتصاريف شريعته؛ ففيها من مقومات الرحمة العامة للخلق كلهم.

١٥. خص الله المؤمنين بالرحمة في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ وإن كان رحمة للعالمين؛ لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم.

١٦. ثبوت رحمة النبي ﷺ للمنافقين أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧]، وأما حمل الرحمة في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١]، على المنافقين، وأنه ﷺ رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين؛ فلم يرتضه عدد من أهل العلم؛ وأن الرحمة في الآية الكريمة للمؤمنين دون غيرهم.

والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع:

١. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي أبو السعود، ط٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
٢. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبدالله أبو زيد، ط١، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م.
٣. بحر العلوم، نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي، تحقيق د. محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت: بدون.
٤. البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٥. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سُحنون للنشر والتوزيع، تونس: بدون.
٦. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي، ط١، دار الكتاب العربي، لبنان: ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
٧. تفسير أسماء الله الحسنى، إبراهيم بن محمد بن سهل الزجاج، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، دار الثقافة العربية، دمشق: ١٩٧٤م.
٨. تفسير الراغب الأصفهاني من سورة آل عمران وحتى نهاية الآية (١١٢) من سورة النساء، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق ودراسة د. عادل بن علي الشدي، ط١، مدار الوطن، الرياض: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩. تفسير القرآن، أبو المظفر منصور بن محمد بن عبدالجبار السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وغنيم بن عباس بن غنيم، ط١، دار الوطن، الرياض: ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .
١٠. تفسير القرآن الحكيم المشتهر بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، ط٢، دار المنار، القاهرة: ١٣٣٦هـ/١٩٤٧م.
١١. تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمرو بن كثير القرشي تحقيق: سامي بن محمد السلامة، ط٢، دار طيبة، الرياض: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
١٢. تفسير القرآن الكريم (سورة آل عمران)، محمد بن صالح العثيمين، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
١٣. التفسير الكبير، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
١٤. تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، أ.د. سليمان بن إبراهيم اللاحم، ط١، دار العاصمة، الرياض: ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.
١٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، ط٤، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
١٦. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: د.عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، دار عالم الكتب، الرياض: ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
١٧. الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، محمد ابن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٨. الرحمة في القرآن الكريم، موسى عبده عسيري، ط١، مكتبة الرشد، الرياض: ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

١٩. جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على محمد خير الأنام، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مشهور بن حسن سلمان، ط٣، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٢٠. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أحمد بن يوسف السمي الحلبي، تحقيق: د. أحمد الخرَّاط، ط١، دار القلم: دمشق: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
٢١. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود بن عبدالله الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.
٢٢. زاد المسير في علم التفسير، عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٤هـ.
٢٣. صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٤. صحيح الجامع الصغير، محمد ناصر الدين الألباني، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٢٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٦. صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، عبدالرحمن بن محمد الدوسري، ط١، دار المغني، الرياض: ١٤٢٥هـ.
٢٧. العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: د. خالد بن عثمان السبت، ط٢، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة: ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
٢٨. فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن، عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبدالرزاق البدر، ط١، دار ابن الجوزي، الدمام: ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٢٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، دار المعرفة، بيروت: ١٣٧٩هـ.
٣٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: د. عبدالرحمن عميرة، ط٢، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.
٣١. قواعد الترجيح عند المفسرين -دراسة نظرية تطبيقية-، حسين بن علي بن حسين الحربي، ط١، دار القاسم، الرياض: ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.
٣٢. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: بدون.
٣٣. الكشف والبيان، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
٣٤. الكليات، أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٥. اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٣٦. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري،، ط١، دار صادر، بيروت: بدون.
٣٧. مجاز القرآن، معمر بن المثنى التميمي، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت: ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.
٣٨. مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن ابن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٣٩. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، والسيد عبدالعال السيد إبراهيم، ط٢، بدون.
٤٠. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت: ١٩٩٣هـ / ١٩٧٣م.
٤١. المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م
٤٢. معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد عبدالله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، ط٤، دار طيبة، الرياض: ١٤١٧ هـ/١٩٩٧م.
٤٣. المفردات في غريب القرآن، الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ضبط: هيثم طعيمي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
٤٤. مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، ط٢، دار الجيل، بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٤٥. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف أبو زكريا النووي، تحقيق: خليل مأمون شيحا، ط٦، دار المعرفة، بيروت: ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٤٦. المنافقون في القرآن الكريم د. عبدالله الحميدي، ط١، دار المجتمع، جدة: ١٤٠٩هـ /١٩٨٩م.
٤٧. النكت والعيون علي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت: بدون.

٤٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
٤٩. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية بيروت: ١٤١٥ هـ/١٩٩٤م.